الأدب في طريقه الى القارئ

بقلم : بهيج عثمان

بعد أن ينتهي المخاض الأدبي الذي يعانيه الاديب يتخلى عن وليده ، بعد جهد ، للورق الذي يحتفظ بصورته في الفاظ و كلمات ، هي لحمه ودمه وعظامه...

واذ يغادر الوليد الادبي مبدعه ، وينفصل عنه انفصال الابناء عن الآباء ، تصبح له شخصية لها حقها في الانتقال والتحرك ، وان كانت تحمل اسم ابيها مع اسمها .

وقبل أن تبلغ غايتها التي أطلقها اليها مبدعها ، تجتاز خط سير طويل ، كثير الشوك ، حافل بالعقبات ، وسواء أكان الوليد الادبي كاملًا سوياً ، فيه أسباب الحياة كلها ، ام كان يعوزه بعض المقويات لاستكمالها ، فانه لا ندحة له ، لكي يبقى وينمو ، ويتابع سيره متغلباً على العقبات ، مقلماً اشواك الطريق ، من عوامل هي كالغذاء للكائن الحي النامي .

قد تكون القوى المبدعة كامنة في مياه لبنان – كما اكد الاستاذ سعيد عقل ، في الشهر الماضي ، من على منبر الندوة اللبنانية – وتحت سطح ارضه ، وفي اعماق شواطئه ، وقد تكون مدخرة مع اشعة شمسه وفي عقول ابنائه وقلوبهم ، ولكن هذه المدخرات المكنونة لا تصير نقداً صالحاً للتداول الا اذا اكتشفت وصهرت وسُكت وحملت قيمتها . فما قيمة المقدر من ثروة بلدنا الزراعية اذا عددنا البذور التي القيت في التراب ، دون ان نحسب حساباً لصلاح التربة او فسادها ، وانحباس المطر او طوفانه ، وبذل الرعاية او اهمالها ، اودون ان نقدر زورة تقوم بها حشرات الأرض فتداعب الغرس ، او غزوة من جراد تأتي على الزرع ، وعلى الاحصاء الذي اعددناه !

كم كان فلاحنا حكيماً حين جعل « البيدر » ميزان موسمه وثروته !

والأثر الادبي لا يؤدي رسالته بمجرد رسمه على الورق ، إن كان كتابة ، او بمجرد انطلاقه من فم قائله ، إن كان خطاباً او حديثاً او قصيدة ملقاة ، ولكنه يؤديها حين يبلغ بيدر القراء ، يقرأونه مغربلين ، ويفهمونه ، ثم يتمثلون ما فهموه .

وقبل ان تقحم سائر العوامل الخارجية نفسها في حياة الادب ، فتمتحن حقيقته ، يفرض وجوده على طريق الاثر الادبي ، فيمهده ويعبده ، شيء سحري ، اسمه « الشهرة » طالما حاول المتذوقون إلغاء اثره او أضعافه . وقد نجحوا قليلًا واخفقوا كثيراً .

إن « الشهرة » ذات نفوذ قوي في رواج الافكار ، وسيرورتها ، وفي فرض بعض البدع الادبية ، وقبول بعض الاخطاء ايضاً ، وفي هذا الداء يستوي ادبنا ، وآداب الامم الاخرى ، التي يعمل الناشرون على تقديم اعلامها وإظهارهم وتسليط الأضواء على اسمائهم كأنهم أبطال يلعبون أدواراً على الشاشة . ولا تزال ألقاب عميد الأدب ، والمفكر الكبير ، والقاص الانساني ، تخدر بعض العقول ، ولا تزال اسماء غوركي وسارتر وجبران ونعيمه ، تشق سبيل الرواج امام كتبهم .

أعرف كاتباً نشر كتاباً ، فلم يتحرك عن رفوف المكتبات ولم يحاول ان يتصفحه الا القليل ، ولم يكن الموضوع تافهاً ، ولم تكن المعالجة سطحية .

ثم نشر كتاباً آخر ، فلم يكن حظه خيراً من حظ شقيقه .

غير ان كاتبنا ، الذي يحمل على عاتقه رسالة ، ويضم في صدره إخلاصاً لها ، لم ييأس ، بل عرض كتابه الثالث على دور النشر ، فقبلته ، اخيراً ، دار من الدور على استحياء ، فكان ان انضم الكتاب الى زميليه في مستودعات الكتب المهجورة .

فلما كان كتابه الرابع ، وكان ذا موضوع خاص ، رافقه كلام ومناقشة ، وأيده فريق وعارضه آخر ، وصادرته حكومة من الحكومات ، أقبل عليه القراء أقبالاً غير مألوف ،

«اذا وعي الناشر العربي رسالته حق الوعي فسح الطريق أمام الكتب التي تعزز في القارىء العربي كرامته وتعرفه إلى حقه في الحياة ، وسدّ الطريق على الاقلام الهاربة من الجندية في صراع عنيف من أجل مستقبل ، لن تنجلي معالمه الا مع نتائج هذا الصراع.»

ولم يلبث اسم هذا الكاتب ان اصبح داعياً ملحاً لعدد كبير من القراء .. لا يكادون يرون اسمه على غلاف كتاب حتى يقتنوه ويقرأوه معجبين .

وكانت هذه الشهرة باباً مشرعاً وصل بين القراء وبين كتب هذا الكاتب القديمة التي ما لبثت ان أزيح عنها الغبار ، وان عادت اليها الحياة ، فانتقلت من المستودعات إلى مكتبات القراء .. وقد أعيد طبع بعضها ايضاً !

فهذه الشهرة لا تعنيها قيمة الكتاب ، وقد يكون قيماً او لا يكون ، بل يعنيها ان لصاحبها اسماً معبراً مرادفاً لكثير من المعاني التي تدفع القراء الى الاقبال عليه .

وبدلاً من ان تدفع الشهرة القراء الى ان يفرضوا على صاحبها مستوى عالياً متناسباً مع شهرته ، لا ينبغي ان ينحدر عنه ، فاذا ما كان انتاجه عادياً استهجنوا «عاديته» واعتبروها طعناً في شهرته وتشويهاً لها ، اقول بدلاً من ان تدفع الشهرة القراء إلى مطالبة صاحبها بما يوازيها ، جعلتهم يعتبرون الصغير الصادر عن قلمه كبيراً ، والتافه قيماً ، والخطأ له مبرراته !

ولا انكر ان الشهرة نفسها لا تتأتى لصاحبها ارتجالاً او مصادفة ، فكثيراً ما يبنيها صاحبها ، على مدارج من الجهد والعناء والكفاح ، او على آثار متتابعة لقيت من الشقاء الواناً ، حتى اثبتت وجودها من قيمة ذاتية فيها ، او ظروف خاصة خلقتها او رافقتها ، او ارجاع سريعة خلفتها . فثمن الشهرة عناء وقيمة وكفاح وثورة ، يلقى صاحبها ، حتى يبلغها ، من النقد والصد ، والمتاعب المؤذية ، الشيء الكثير ، وسواء أأدرك لنفسه او لفكرته النصر بعد ذلك ، ام لم يدرك ، فان الذي لا ريب فيه انه قد كسب في الحالين ، صيتاً بعيداً وشهرة تدور بذكره وتسبق آثاره التالية .

فالشهرة الطيبة ، ثمرة طبيعية لاعمال ذات قيمة ، ومن حق صاحبها ان يبلغها لتكون مكافأة حسنة عما قدمه في عمله من جدة وابداع .

فاذا تناساها صاحبها ، وواصل إبداعه مخلصاً لعمله ، صادقاً مع نفسه ، متمسكاً برسالته ، كانت شهرته معيناً له في رواج ادبه وفرض آرائه الجديدة على ايسر سبيل . اما اذا اطمأن صاحب الشهرة الى شهرته ، واتكأ عليها ... فستنتهي به إلى الكسل والعقم بدلاً من ان تدفعه إلى العمل والعطاء ، واذا هو يجتر نفسه اجتراراً ويشرح آراءه القديمة ويعيدها في صور مختلفة .

ومن حسن حظ الادب ، عندنا ، ان سحر الشهرة قد خف أثره كثيراً ، عما كان عليه منذ عشرين سنة . فالشهرة لا تزيد اليوم على طابع من طوابع البريد ، تملك ان تحمل الكتاب الى البلاد البعيدة وتنقله الى كل مكان ؟ وقد تستهوي بعض هواة الطوابع .. اذ يضمون الى مكتباتهم اسماء لا موضوعات ، ويقف الامر عند هذا الحد . اما الذين يقرأون ويسيغون فانهم يقبلون على الموضوع الذي يعلن عن نفسه دون حاجة الى وسيط .

وفي مجلاتنا الادبية ، نقرأ كل يوم مقالات جيدة لأسماء لم نسمع بأصحابها ، نقرأها بلذة ونطلب من امثالها المزيد . وقد بدأت صحفنا الأدبية ايضاً تنشر مقالاً وترفض آخر ، وهما من قلم كاتب واحد .. لانها لم تعد تعبد القلم .. وانما تنظر الى ما ابدعه القلم . ولست ادري اذا كان بعض المدرسين سيغضبون اذا علموا ان الحياد بلغ بأحدى المجلات ان نشرت مقالات لطالب ، طالما رفضت نشر مقالات استاذه !

لقد بطل سحر الشهرة ، الى حد بعيد ، واذا كانت بعض آثارها لا تزال تفرض وجودها في كثير من معالم حياتنا الفكرية ، فلأن اصحابها قد تبوأوا هذه الشهرة بعد امتحان عسير من عطاء متكرر ، او لان الناقد الذي يمكنه ان يضع حداً لتأثير الشهرة في تقييم الادب ، لا يزال ضعيف الاثر في ادبنا .

***

بين الخلق الادبي ، والقراءة ، وهما عملان روحيان ، «مجال لمغامرة تجارية صغيرة» . فالاثر الادبي ، اذ يصبح كتاباً ، ينقلب الى بضاعة مادية تجري عليها صفات البيع والشراء . ولا بد لكل اثر ادبي من ان يمر في هذا الطريق المادي قبل ان يؤدي مهمته الروحية .

فهذه النسخ الكثيرة المتداولة من الكتاب الواحد ، والتي تنقل عقول مؤلفيها الى آلاف القراء في كل مكان ... كانت مخطوطة واحدة قبل أن اختارها الناشر ، وجعلها في متناول الراغبين .

والنشر ، بمعناه الحديث ، مهنة ناشئة في بلادنا ، دعت الى وجودها وفرة المؤلفات وفوضى البيع ، وبينهما مشكلات ينوء بأثقالها كاهل المؤلف ، بعدان قاسى عناء الوضع والتأليف .

ودار النشر مدرسة بين يديها كثير من الوسائل الفاعلة .

فهي تملك توجيه الراي الى فكرة من الافكار او نزعة من النزعات

وهي تملك تغيير الثقافة في جيل كامل بما تنشر من خير وحق ، او بما تزور من شر وباطل

وهي تقدم اسماء يزيدها التردد ظهوراً ولمعاناً ، وتخفي غيرها ، فيخيم عليها النسيان الظالم .

ويفسح غياب الناقد من مهمة الناشر ، ويمده في طغيانه فيدور الناشر مع رغباته ، ويقذف الى القراء الادب الذي يقرأون ، لا الادب الذي يجب ان يقرأوا !

واذا كانت الدار الناشرة تملك اسباب الثقافة ، وزمام الادب ، فمن الواجب ان يتصف القيمون على النشر بصفات ضرورية في مهنة بعيدة الاثر في حياة الامة ومستقبلها .

واولى هذه الصفات ان يكون الناشر مثقفاً ، تؤهله ثقافته الى ان يميز الصالح من الضار في عالم الكتب ، وإلى ان يشارك في تصور المستوى الذي يجري فيه المؤلف . فاذا كان الصيدلي لا يمارس مهنته الا بعد شهادة تثبت انه اصبح خبيراً في تمييز السموم ، وفي تركيب عناصر الدواء ، حذراً من ان يؤذي جهله جسم مريض من المرضى ، فكيف يجوز ان نتغافل عن الناشر الذي لا يدري متى يمكن ان يؤذي كتاب من الكتب جيلاً من القراء ، يؤذيهم في عقولهم وطباعهم واخلاقهم .

والثقافة من غير الوطنية لا تكفي وحدها في الناشر العربي ، في خضم التيارات السياسية والاهواء الاستعمارية التي تلعب ادوارها في البلاد العربية ، والتي تتخذ ، فيما تتخذ ، الكتاب سبيلاً لبث آراء ومقاومة غيرها ، فأنى توجهت اعترضك سيل من الكتب التي قد تسلي وتمتع وتقتل الضجر وتخدر الاعصاب ، ولكنها لا تثقف ولا ترقى بالقارىء العربي الى مستوى عقلي يعينه على اصلاح حاله وتحسين مجتمعه . انها كتب تحبب القارىء العربي بأمم طالما اساءت اليه فيما تنشر من حسناتها ورقيها ودفاعها المزعوم عن الحريات لتستر اعمالاً مخزية اسهمت في اقامتها . فاذا كان الناشر واعياً رسالته القومية حق الوعي ، تحتم عليه ان يحول بين هذه الكتب وبين الظهور ، كما تحتم عليه ان يفسح الطريق امام الكتب التي تعزز في القارىء العربي كرامته ، وتعرفه الى حقه في الحياة ، وتدله كيف يضمن هذه الكرامة وكيف يبلغ هذا الحق .

وبين ثقافة الناشر ووطنيته ، يتكون عنده نوع من المرونة يدرك بها ان لكل كتاب اواناً فقد يكون مقبولاً في وقت ، ضاراً في وقت آخر ، فالبكاء وقت الهجوم خيانة ، والغزل تحت اضواء القمر ، عاطفة انسانية طبيعية ، اما اذا منعت المناجاة شاعرنا من ان يرى البؤس والعار والعبودية في مجتمعه فهو شاعر مزيف فيه من الحب انانيته وذله وعماه !

والناشر الذي يعي رسالته حق الوعي يأبى ان يكون سبيلاً ميسرة للاقلام الهاربة من الجندية في صراع عنيف من اجل مستقبل ، لن تنجلي معالمه الامع نتائج هذا الصراع .

وعلى ما يخيل للمرء من انه ازاء تخمة عارمة في المؤلفات التي تقذفها المطابع اللبنانية الى القراء ، فان دور النشر ترد كل اسبوع ، عشرات المخطوطات تريد ان ترى النور ، ومن حقها ان تراه . وما رددت وجهاً غريباً ، يريد ان ينشر كتاباً ، الا خشيت ان يكون في اهابه نواة عبقرية . . . فأترفق بصاحب الغد المجهول ما استطعت ، وقد اذكره بأن عدداً من كبار ادباء العالم ، قد رد الناشرون كتبهم في نشأتهم الاولى .

والناشر حين يرد هذه المخطوطات يفكر كثيراً في هوى القراء ورضاهم ، وكثيراً ما يقدم اليهم ما يروج عندهم ، لا ما هو قيم في نفسه . من اجل ذلك فاضت في الاشهر الاخيرة كتب التسلية الرخيصة ، ومن المؤلم ان كثيراً من القراء استهوتهم في السلاسل البوليسية خفة اللصوص لا شجاعة الشرطي ، كما استهواهم في الروايات الخفيفة عنف الغرام وحدة الانتقام أكثر مما استهواهم جمال الوفاء وروعة الحب وكرم التضحية !

وهنا تظهر مهمة الناشر الصادق مع رسالته ومهنته ، حين لا يسهم في نشرات تكرم الجريمة وتشيد باللص وتشوه البطولة وتنحرف بالشباب العربي عن ان يفكر في غده الذي تحف به اخطار الاستعمار من الخارج ، وانياب البطالة والتفسخ من الداخل . يحول الناشر الصادق دون نشر هذه النشرات فيفيد امته ، ويوجه المؤلف الى انفاق مواهبه فيما يجدي ، فنكسب مؤلفاً كاد ان يضيع ، ويضيع وراءه جمهرة من ابنائنا .

وتزداد مهمة الناشر خطورة حين يطرأ على العالم العربي ، هيئات ثقافية اميركية تدعو الى ترجمة كتب بعينها ، وتنشر

ادباً تختاره ، وتحصر حق الترجمة بها ، فاذا هي تفرض على العالم العربي لوناً واحداً من الادب تذيعه في الناس وتنشره في كتب انيقة جذابة . وعملها ، كما يبدو للوهلة الاولى ، عمل ثقافي يخدم القارىء العربي ويوسع من افقه العقلي . ولكن حين تنصب الترجمة على الادب الاميركي وحده ، وعلى الوان معينة من الادب الاميركي ، ليس من بينها ادب الثورة والحرية ، بل ليس من بينها ادب الأصالة والعمق ، يتبين لنا ، بقوة ، كيف يكمن الخطر في صبغ القارىء صباغاً سطحياً يرافقه ترويج لالوان معينة من التفكير .

والنشر العربي واقع تحت وطأة مناسبات طارئة ، اكثر مما هو خاضع لدراسات منظمة تعمل على التعرف إلى ثغرات في المجتمع العربي ، فتحاول ان تملأها ، او إلى ظلمات في زوايا المعرفة فتحاول ان تنيرها بنتاج جديد .

إن المناسبة وحدها هي سيدة الموقف في توجيه النشر في لبنان خاصة : اندفع الناشرون منذ سنوات الى نشر المؤلفات والمترجمات التي تتناول الثقافة الجنسية

ثم انقلبوا بعدها إلى نشر الابحاث النفسية ، او السيكولوجية — لتكون اكثر ايقاعاً — بعد تجربة قام بهـا بيت من بيوت النشر

وما كادت تجربة اخرى في سلسلة تاريخية ، تثبت نجاحها حتى انصب الناشرون على كتب التاريخ والاعلام ..

وغيرت بعض المحاولات الرأي في كتب العقائد والنزعات الفلسفية ، حين اثبتت ان عدد روادها ليس قليلاً ، فطغت موجات من الكتب تحلل الماركسية والاشتراكية والوجودية والفوضوية والقومية ، كما طغت موجات تحمل اسماء ديكارت وبرغسون ، وماركس ونيتشه وفرويد ، وسارتر وسيمون دي بوفوار ، في كتب لهم او عنهم .

ونحن في هذه الايام ، على عتبة اندفاع جديد نحو احياء الموسوعات الأدبية واللغوية من التراث العربي القديم ، فقد ظهرت في مدة قصيرة اجزاء من لسان العرب والاغاني ومجمع البيان ونهج البلاغة ، وشرحه ... وعلى الطريق كثير .

والذين يعيشون في صناعة الكتاب ، يعرفون ان احياء التراث العربي ، لم يكن الباعث الذي راود خيال الناشرين ، حين اقبلوا على هـذا اللون من النشر ، ... فالامر ايسر من ذلك .. نشر الاستاذ عبدالله العلايلي اجزاء من معجمـه ، فلقيت اقبالاً غير متوقع ، واعلن الاستاذ فؤاد البستاني عن قرب ظهور دائرة المعارف فبدت رغبات في اقتنائها ..

وكان ذلك آية على ان نشر الموسوعات بعيد عن ان يكون تجارة خاسرة !

ولن ينقذ الحياة الادبية من هذا الارتجال في النشر الا احكام مدروسة تصدر عن نقاد يدركون رسالة النقد الادبي ، ويقدرون اثره في إحياء الادب وتوجيهه .

فهل يقوم النقد بمهمته في ادبنا ؟ ومـا هي سائر المؤثرات التي تعترض سبيل الادب في طريقه الى القارىء ؟ ذلك ما نرجو ان يتناوله كلامنا في العدد القادم .

بهيج عثمان

يصدر هذا الشهر

اكثر من قلب واحد

ديوان شعر جديد ، قصائد رائعة من حيث محتواها التقدمي النير ، ومن حيث صياغتها الفنية النابضة بالجمال ...

شعر

شوقي البغدادي

من رابطة كتاب العرب في سوريا

أبشيرون

— رواية —

رواية سوفياتية رائعة تصور حياة الناس السوفياتيين ونضالهم الدائم ، في سبيل بناء المجتمع الجديد ...

للكاتب الاذربيجاني الكبير

مهدي حسين

الحائز على جائزة ستالين

دار الفكر الجديد ـ بيروت

ص. ب : ٣٢٥٤ — هاتف : ٢٢٩١٢